الإحالة في النص القرآني رسالة ماجستير-جامعة اليرموك
...للباحث ياسين بني ياسين نوقشت وأقرت بتاريخ ٢٠-٨-٢٠٠٦

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وبعد؛
قامت فكرة هذه الدراسة على تناول موضوع الإحالة في النص القرآني، باعتبار الإحالة خاصية لغوية تمتلكها أبنية النص، تقوم على التحكم بمسار الرسالة المبثوثة، مجبرة المتلقي على التنقل في فضاء النص القرآني، والاستعانة ببنية لغوية غير التي يصل إليها استقباله، وانطلقت هذه الدراسة من مقاربة الإحالة باعتبارها إحدى معطيات النص التي تسهم في نصيته، لا بكونها أداة من أدوات الاتساق حسب، بل لأنها تسهم- أيضا - في تحقيق عدد من الأمور التي تتحقق بها النصية .

وقد أقدمت هذه الدراسة على التصدي للإحالة من منظور تجاوز أفق إحالة المضمرات، على ما تعود عليه، سعيا للامتداد بمفهوم الإحالة، وزيادة المفردات المنضوية؛ وكان تركيزها منصبا على بيان مظاهر الإحالة التي لا يشار إليها في الدرس اللغوي، وإلى دورها في بناء النص، وغير ذلك من القضايا التي يعتقد الباحث أنها يمكن الإفادة منها في تحليل النصوص ووصفها وتحليلها تحليلا لغويا ؛ لذا فهذه الدراسة تنتمي إلى نحو النص، فهي تهتم بطرفي الحدث التواصلي، وبالسياق، وبدور الإحالة في تشكيل النص وتماسكه، و تقف على أشكال البنى الإحالية في النص، و انعكاس شكل هذه البنى على البنية الكلية له، وتهتم بدور الإحالة في تحقيق مقاصد منشئي النصوص.

عرضت بعض الدراسات للإحالة في النص القرآني، غير أنها لم تراعِ خصوصيته، ولم تلتفت إلى كثير من مظاهر الإحالة في النص القرآني؛ لأنها انطلقت من تصور مسبق لأشكال الإحالة ووظائفها، وهو التصور الذي يقدمه هاليدي ورقية حسن في كتابهما الاتساق في الإنجليزية، ومن هذه الدراسات كتاب علم اللغة النصي: تطبيق على السور المكية لإبراهيم صبحي الفقي، و رسالة دكتوراة لأحمد أبو دلو، وهي بعنوان: تحليل الخطاب الجدلي في القرآن الكريم؛ غير أن هاتين الدراستين اعتمدتا على تصور هاليدي ورقية حسن، فأقدمتا على التصدي للإحالة بوصفها إحدى أدوات الاتساق النصي .

وقد تصدى سعيد البحيري للإحالة في النص القرآني في كتابه(دراسات لغوية تطبيقية)، حيث خصص فصلا للإحالة، أسماه " تضافر العناصر الإحالية والإشارية في تماسك النص" غير أنه اعتمد فيه بشكل كبير كتاب الأزهر الزناد(نسيج النص)، واقتصر فيه على بيان دور الإحالة في تماسك النص جنبا إلى جنب مع الروابط التركيبية والزمانية، و عرض فيه- أيضا- للبنية الإحالية للضمائر وأسماء الإشارة، على نحو لا يتبين فيه القارئ كثيرا من مظاهر الإحالة في النص القرآني.

وأشار تمام حسان للإحالة في النص القرآني في كتابه(البيان في روائع القرآن)، غير أنه لم يعرض إلا لبعض جوانبها؛ ولعل السبب أن كتابه تصدى لمسائل عديدة كانت الإحالة إحداها .
عرضت بعض الدراسات للإحالة في نصوص غير النص القرآني، منها رسالة دكتوراه لمحمد أحمد أبو عيد بعنوان: تطور أدوات الاتساق النحوي والمعجمي في الشعر العربي الحديث؛ وعنوان هذه الرسالة يدل بوضوح على أنها اعتمدت على نظرية الاتساق عند هاليدي ورقية حسن؛ والتي تنظر للإحالة على أنها إحدى الأدوات التي يتحقق بها الاتساق النصي. وهناك دراسة أخرى، وهي رسالة دكتوراه لعبد المهدي الجراح بعنوان: الخطاب وأثره في بناء نحو النص، عرض فيها للإحالة، وقام بتصنيف الإحالة تصنيفا جديدا اعتمادا على معايير جديدة.

ومن الدراسات التي وظفت الإحالة في التحليل، بحث بعنوان"قصيدة الوقت لأدونيس: ثنائية الاتساق والانسجام" لسامح الرواشدة، حاول أن يثبت فيه أن النص قد يكون منسجما رغم عدم وجود ما يكفي من أدوات الاتساق، وهذا ما قامت عليه نظرية الانسجام لفان ديك، أما فيما يتصل بالإحالة فقد اعتمد على كتاب لسانيات النص لمحمد الخطابي، وتحديدا على الفصل الأول من هذا الكتاب، وهو عرض موجز لتصور هاليدي ورقية حسن لتحليل الخطاب؛ وقد اختاره الخطابي نموذجا على المنظور اللساني الوصفي، في بيان كيفية انسجام الخطاب واتساقه.

أما فيما يتصل بأهمية الدراسة، فتتأتى من عدة جوانب، منها: أن الباحث لم يقف على أي دراسة في اللغة العربية تتصدى للإحالة بشكل مستقل، وأنه حاول الوقوف على أشكال الإحالة في النص القرآني ووظائفها، وسعى للوصول إلى نتائج يمكن الإفادة منها لوصف البنى الإحالية في نصوص أخرى، ويرى الباحث أن للإحالة أشكالا ووظائف لم يعرض لها الدارسون.

قسم الباحث هذه الدراسة إلى أربعة فصول؛

عرض في الفصل الأول لمفهوم الإحالة في الدرس اللغوي، وحاول أن يقدم فيه صورة مختصرة وواضحة عن مفهوم الإحالة،

وعرض الباحث فيه- أيضا- للسيوطي في كتابه(معترك الأقران في إعجاز القرآن)؛ اعتقادا بأن له في هذا الكتاب مقاربة للإحالة الضميرية، أتت على معظم مسائل الإحالة.

أما الفصل الثاني، فقد عرض الباحث فيه لأنواع الإحالة في الدرس اللغوي، وللمعايير التي تصنف الإحالة بمقتضاها، وقد أقدم الباحث على تصنيف الإحالة تصنيفا جديدا عرض فيه أنواعا؛ يعتقد أن أحدا لم يشر إليها، وقف عليها من خلال تتبع الفعل الإحالي في النص القرآني، ووضع لها مصطلحات جديدة لوصف مظاهر الإحالة في النص القرآني.

أما الفصل الثالث؛ فقد عرض الباحث فيه لمظاهر الإحالة في النص القرآني؛ بالوقوف على أشكال الإحالة فيه وعلى الوظائف التي تؤديها الإحالة، و قدم الباحث فيه مظاهر الإحالة في النص

القرآني على نحو، يعتقد أنه من خلاله يمكن تصور البنية الكلية للنص من خلال تتبع الفعل الإحالي .

أما الفصل الرابع فقد عرض فيه الباحث لوظائف الإحالة، وخصوصيتها في أبنية النص، و عرض فيه تصورا للكيفية التي تتحقق بها وظائف الإحالة.

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي؛ فقد قامت على تتبع الفعل الإحالي في النص القرآني، واستقراء العناصر الإحالية، وأشكال الإحالة ووظائفها، وعمل الباحث على تجريد المقولات والمصطلحات لوصف الظواهر التي وقف عليها؛ وقد اتبع الباحث هذا المنهج؛ لأن دراسة أي ظاهرة لغوية من منظور نحو النص تسعى غالبا لتجريد قواعد تبين كيفية تشكل النصوص.
واجه الباحث صعوبات كثيرة في هذه الدراسة، وأبرز هذه الصعوبات هو قلة الدراسات العربية التي تصدت للإحالة، وثمة صعوبات تتصل بطبيعة النص القرآني؛ إذ وقف الباحث فيه على مظاهر إحالية لم يتم الحديث عنها في الدرس اللغوي؛ وهذا تطلب وضع مصطلحات تدل على هذه المظاهر، إضافة إلى الصعوبة التي واجهت الباحث في اختيار مصطلح يتناسب مع الظاهرة .

ويأمل الباحث أن تقدم هذه الدراسة ما يمكن الإفادة منه في نحو النص، حيث إن هذا العلم لا يزال حديثا في الدرس اللغوي عموما، وفي الدراسات العربية خصوصا.

وأسأل الله أن يكون الباحث قد وفق فيما اجتهد؛ وإن أصاب فمن الله، وإن أخطأتُ فلي أجر الاجتهاد، وأسأل الله أن يوفقنا لخدمة القرآن العظيم.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج ، وأبرزها:

-أن للبنى الإحالية في النص القرآني أشكالاً متعددة ، تتجاوز ما يشار إليه من أن البنى الإحالية تقوم على مكونين : عنصر إشاري وعنصر إحالي ، وقد أثبتت الدراسة أن البنية الإحلاية قد تتشكل من عنصر إحالي يقابله في بنية الإحالة عدد من العناصر الإشارية المتجاورة أو المتباعدة في فضاء النص ، وهذه البنية هي بنية ما أسماه الباحث الإحالة الاندماجية ، وقد تتكون البنية الإحالية من عنصر إشاري يقابله عدد من العناصر الإحالية ، وهذه البنية هي بنية ما أسماه الباحث الإحالة الانقسامية.

-لا تخضع بعض الإحالات للقيد الدلالي الذي يشير إليه علماء لغة النص، وهو التماثل الدلالي بين العنصر الإحالي ومرجعه؛ فقد يحيل الضمير واسم الإشارة المفردين على متعدد، وقد لا يتماثل العنصر الإحالي مع مرجعه تماثلاً تاماً، وهذا يحدث فيما أسماه الباحث الإحالة الاجتزائية، وقد تنتفي الوحدة الدلالية بين مكونات البنية الإحالية، وهذه بنية ما أسماه الجراح الإحالة التخالفية.

-وسّعت الدراسة مفهوم ما أسماه الجراح الإحالة التخالفية، وأثبتت أن هذا النوع من الإحالة لا يخضع لقيد الاتحاد في اللفظ؛ لأن بعض الإحالات الضميرية ينتفي فيها الاشتراك الإحالي بين مكونات بنيتها الإحالية .

-قدم الباحث تصنيفاً جديداً للإحالة وذكر أنواعاً يعتقد أن أحداً لم يشر إليها من قبل وقف عليها من خلال تتبع الفعل الإحالي في النص القرآني، وقام بوضع مصطلحات لهذه الأنواع.

-أثبتت الدراسة أن للإحالة في النص القرآني أشكالاً ووظائف، غير التي يشير إليها علماء لغة النص.

-أثبتت الدراسة أن الإحالة لا تقتصر على عناصر إحالة محددة كالضمائر وأسماء الإشارة؛ وذكرت أن ثمة عناصر أخرى تتوفر على سمات دلالية غير سمتي الجنس والعدد، يمكن أن تحيل داخل النص.
تقوم كثير من الإحالات في النص القرآني على التعميم، دون أن يكون في ذلك إلغاء للمرجعية، وهذا يرتبط بمعالجة النص القرآني للمواقف والأحداث، وكونه خطابا له ديمومته.

مفهوم الإحالة في الدرس اللغوي- من رسالة الماجستير جامعة اليرموك-٢٠٠٦
إن أول ما ينبغي البدء به عند الحديث عن مصطلح الإحالة في الدرس اللغوي هو الإشارة إلى أن لهذا المصطلح استعمالات متعددة، وتصورات مختلفة لمفهومه، وأنه يجب التمييز بين استعمال هذا المصطلح في الطرح التقليدي، والاستعمال الخاص له عند هاليدي ورقية حسن في كتابهما الاتساق في الإنكليزيةCohesion in English ، وتجدر الإشارة إلى أن لليونز تصورا خاصا للإحالة تبناه يول وبراون في كتابهما (تحليل الخطاب.(

.1مفهوم الإحالة في الطرح التقليدي
يستعمل مصطلح الإحالة" في الطرح التقليدي كما هو الحال لمصطلح معنى لغوي للحديث عن معنى المفردات؛ فإن معنى مفردة مثل(دجاجة) يحدد جزئيا بمعناه في اللغة أي خاصياته المميّزة، مثل: حيوان، له ريش، إلخ [...] وكذلك بإحالته إلى شيء ما، أي إلى مجموعة الأشياء في العالم، التي يصح أن تنطبق عليها العبارة .( )"
ويشير يول وبراون إلى أن مفهوم الإحالة في الطرح التقليدي يمكن تصوره على أن العلاقة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة، وأن هذا المفهوم التقليدي للإحالة لا يزال يجد ذيوعاً في

الدراسات اللغوية، مثل علم دلالة المفردات التي تصف العلاقة بين لغة ما والكون دون أن تأخذ بعين الاعتبار مستعمل اللغة.( )
ويرى بوجراند أن الإحالة هي" العلاقة بين العبارات والأشياء objects والأحداث events والمواقف situation في العالم الذي يُدَلُّ عليه بالعبارات ذات الطابع البدائلي alternative"( )؛ وهذا التعريف يعكس النظرة التقليدية للإحالة، و"هي تلك النظرة التي يُنظَر فيها إلى علاقة الإحالة على أنها تربط العبارات في النص بكيانات في العالم"( )، غير أن بوجراند أشار إلى مسألة الطابع البدائلي.
ويمكن القول إن إشارة بوجراند إلى مسألة الطابع البدائلي جعلت تعريفه أقرب إلى وصف ظاهرة الإحالة في النص؛ لأنه يشير إلى أن الإحالة على شيء واحد يمكن أن تؤدى بصيغ متعددة، دون حصرها بعلاقة الأسماء بالمسميات، أو بعناصر إحالية محددة. وهذه المسألة هامة جدا؛ لأنها ترتبط بالعديد من المسائل كالاشتراك في الإحالة، والغالب في النصوص أن نجد فيها صيغاً متعددة تشترك في الإحالة على شيء واحد؛ ففي سورة الأعلى- مثلا- تمت الإحالة على ذات المرسل-عز وجل- بصيغ إحالية متعددة؛ وهي مبينة في الجدول الآتي:
الآية صيغة الإحالة
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١ (رَبِّك، هو (الْأَعْلَى(
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢ (الَّذِي خَلَق، هو (خَلَق(
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣ (وَالَّذِي قَدَّرَ، هو (قَدَّرَ(
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤ (وَالَّذِي أَخْرَجَ، هو (خْرَجَ(
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥ (هو (فَجَعَلَهُ(
سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى (٦ (نحن(سَنُقْرِئُك(
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧ (اللَّه، الضمير المتصل(إِنَّهُ)، هو (يَعْلَم(
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨ (ضمير المتكلم الجمع المستتر (نُيَسِّرُك(
وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥ (رَبِّهِ

.2مفهوم الإحالة عند هاليدي ورقية حسن
ذكر محمد الخطابي أن هاليدي ورقية حسن" استعملا مصطلح الإحالة استعمالاً خاصاً، وهو أن العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها. وتتوفر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة، وهي حسب الباحثين الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة.( )"
وقد أشار يول وبراون إلى أن استعمال هاليدي ورقية حسن لمصطلح الإحالة كان خاصا بهما، واقترحا استبداله بمصطلح الإحالة داخل النصCo-reference ؛ ولا يعنيان بذلك مفهوم الإحالة الداخلية، بل يعنيان ورود هذه العناصر وعملها داخل النص، لا النظر لها على أنها عناصر منعزلة خارج سياقها، سواء أكانت الإحالة داخلية أم خارجية( ). وقد قسم هاليدي ورقية حسن الإحالة إلى ثلاثة أنواع، وهي:الإحالة الشخصية personal reference والإحالة الإشارية reference Demonstrativeوالإحالة المقارنة Comparative reference.
الإحالة عند يول وبراون
يرى يول و براون أن التعابير المحيلة تتمثل في استخدامات حقيقية، في نصوص محددة،لأهداف محددة؛ ويقصدان بها الألفاظ اللغوية التي تحيل على شيء ما في ذهن المرسل، سواء كان هذا

التعبير معرفة أو نكرة( )؛ فعلى سبيل المثال يمكن القول بناء على ما سبق: إن كلمة (رجل) ليست تعبيرا محيلا، في قوله تعالى) :وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ)( )؛ فليس للفظ رجل في الآية السابقة مرجع في ذهن
لوط- عليه السلام- وهو تعبير محيل بالمفهوم التقليدي؛ لأنه يتصل بـ"مجموعة الأشياء في العالم، التي يصح أن تنطبق عليها العبارة" ( )؛ وتتمثل الأشياء التي تنطبق عليها هنا بالجنس الذي يدل عليه لفظ(رجل) مقيدا بـ(منكم.(
وقد ورد لفظ(رجل) في النص القرآني تعبيرا محيلا في غير موضع، منها قوله تعالىأعجبتم أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)( )؛ فلفظ رجل في الآية السابقة تعبير محيل؛ له مرجع يحيل عليه، وهو ذات النبي نوح- عليه السلام- وكما في قوله تعالىوَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)( )؛ فكلمة رجل في الآية السابقة تحيل على ذات الرجل المؤمن الذي تحدثت عنه السورة.
يبدو للوهلة الأولى في بعض السياقات أن التعبير غير محيل؛ على الرغم من وجود مرجع له في ذهن المرسل، وقد عبر يول وبراون عن هذه المسالة بالضبابية الإحالية، حيث قالا:" ويمكن الحصول على الضبابية الإحالية عندما تأتي العبارة نكرة، بعد عدد من الأفعال، مثل: يبحث عن، ويريد؛ ومن الأمثلة الشائعة على ذلك قولك :
-تبحث مريم عن ممحاة.
-تريد فرجينيا عملا جديدا .
قد يحدث أن يكون في ذهن المتكلم عند تفوهه بمثل هذه الجمل في مناسبة خاصة مرجع معين؛ أي أننا في تحليلنا نقر بوجود ممحاة معينة تبحث عنها مريم.( ) "
ويرى يول وبراون أن السبب في الغموض الذي يجعل البعض يعد مثل هذه الألفاظ تعابير غير محيلة، هو كونها تساق دون سياقات، ويريان أننا في تحليل خطاب طبيعي، سنجد مؤشرات سياقية أو نصية تدل على كون هذه الألفاظ محيلة( ) ، وهذا صحيح ، ويمكن التمثيل لذلك بقوله تعالىوَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)( ) فللوهلة الأولى يبدو أن لفظ (رجل)غير محيل، لكننا نستنتج من سياق الآية، ومعرفة سبب نزولها غير ذلك؛ فقد" قال المفسرون: يعنون الوليد بن المغيرة في مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف"( ). وهذا يعني أن في ذهن من أوردت الآية لفظ(رجل) على لسانهم مرجعا، بل غير مرجع: رجل من مكة (الوليد بن المغيرة(، ورجل من الطائف(عروة بن مسعود الثقفي.(
ولعل من المناسب في هذا السياق أن يشار إلى مسألة المنادى النكرة :المقصودة، وغير المقصودة؛ فالأولى تعبير محيل بالتصور الذي يقدمه يول وبراون؛ لأن لها في ذهن المرسل مرجعا، وهو مرجع محدد؛ لذا عد نحاتنا النكرة المقصودة من المعارف، أما النكرة غير المقصودة فهي خلاف ذلك. وكذلك يمكن أن نفسر العديد من المسائل اللغوية بناء على التفريق بين التعابير المحيلة وغير المحيلة ومن ذلك ما يشار له من أن رب تفيد التكثير أو التقليل وتفسير ذلك أنها تفيد التكثير إذا كان مجرورها تعبيرا غير محيل، وتفيد التقليل عندما يكون مجرورها تعبيرا محيلا.
وقد أشار محمد الشاوش إلى أن الاستعمالات المتعددة لمصطلح الإحالة قد أدى إلى الخلط والغموض، حيث يقول: " لكن الجمع بين استعمال المصطلح Reference للدلالة على الظاهرة العامة تارة، وعلى الظاهرة الخاصة تارة أخرى، قد أحدث في الأذهان ما لا يُقدَّر، وما لا يقدِر عليه الذهن، من ذلك ما نلاحظه من اشتراك معنوي في العبارات المركبة من هذه المصطلحات،

كاستعمالهم لمصطلح الإحالة بالمعنى العام، وهم يقصدون بها مناسبة العنصر اللغوي لشيء في الخارج هو مرجعه، واستعمالهم لنفس المصطلح مقابلا للإشارة، وهم يقصدون به إشارة الأسماء إلى مسمياتها، لا ذلك الصنف من الكلمات الذي يسمى أسماء إشارة من قبيل هذا و تلك، فيكون التمييز بين العناصر الإشارية، وهي التي تحيل مباشرة على الأشياء في الخارج، والعناصر الإحالية، وهي التي لا تحيل مباشرة على شيء في الخارج .( )"

ويمكن القول إن مفهوم الإحالة بدأ يقتصر على الألفاظ التي ليس لها دلالة مستقلة كالضمائر وأسماء الإشارة، ابتداء من هاليدي ورقية حسن في كتابهما المشار إليه، ولعل هذا الاقتصار هو ما قصد به محمد الشاوش الظاهرة الخاصة.

ويبدو أن مفهوم الإحالة كما يعرضه هاليدي ورقية حسن هو ما استقر عليه الأمر في الدرس اللغوي، فعلى الرغم من أن بوجراند- مثلاً- لا يختلف تعريفه للإحالة عن المفهوم التقليدي إلا أنه اقتصر في دراسته على الكنائيات Bro-form، ومفهوم هذا المصطلح عنده مرادف لمصطلح العناصر الإحاليةAnaphors، فقد عرض في كتابه(النص والخطاب والإجراء) لأسماء الإشارة والضمائر وبعض الألفاظ، مثل(one) :، وأشار إلى أن اقتصاره على هذه الألفاظ لعدة أسباب، لعل أهمها أن" هذه الألفاظ من حيث المحتوى مأخوذة من الألفاظ التي تشترك معها في الإحالة ."( )

ويبدو أن الدارسين العرب ممن تصدى للإحالة، قد تبنوا تصور هاليدي ورقية حسن، فلا نكاد نجد فرقاً في تصديهم للإحالة في الإطارين: النظري والتطبيقي -باستثناء محمد الشاوش- عما ذهب إليه هاليدي ورقية حسن، فقد اتخذوا من الحديث عن العناصر الإحالية وأنواع الإحالة،مدخلاً يلجون من خلاله لعرض مفهوم الإحالة، وهو ما فعله هاليدي ورقية حسن( ). وقد افتتح الأزهر الزناد حديثة عن مفهوم الإحالة بقوله:" تطلق تسمية العناصر الإحالية على مجموعة من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى، مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب"( )، ثم عرض بعد ذلك لأنواع الإحالة، وأنواع كل من العناصر الإحالية والعناصر الإشارية.

ولا يختلف تعريف تمام حسان عما سبق- وإن تجرد من الحديث عن العناصر الإحالية والإشارية، وأشار إلى إحدى وظائف الإحالة- حيث يقول:" الإحالة أو المرجعية نوع من ظاهرة الربط في اللغة، تقع خارج إطار القرائن النحوية، وتتجه في اتجاهين: أحدهما إلى ما سبق، والثاني إلى ما يلي .( )"

أما الدكتور محمد الشاوش فقد تصدى للإحالة بالمفهومين: التقليدي والحديث؛ فهو يرى أن الإحالة هي" قدرة الوحدة اللفظية على أن ترجع المتخاطبين(المتكلم والمخاطب) إلى شيء موجود في الواقع هو ما سماه المحدثون مرجعاً، وسماه علماء المعنى في الدراسات اللغوية القديمة خارجاً"( ). ويرى أن العناصر اللغوية التي يمكن وصفها بأنها عناصر إحالية " تتلون بحسب طبائع الوحدات اللغوية"( ). وهذه الوحدات اللغوية تنقسم عنده إلى ثلاثة أقسام هي :

- عبارة ذات إحالة وليس لها دلالة، كالعلم .
- عبارة ذات دلالة وإحالة، كلفظ(الناقة .(
- عبارة ليس لها دلالة ولا إحالة كالضمائر.( )

العلم كما يقول محمد الشاوش يحيل ولا يدل، وليس لمعنى العلم- إذا كان له معنى في أصل الوضع في أغلب السياقات التي يستخدم فيها للإحالة- أي قيمة أو دور، وقد يكون التفات المتلقين لمعاني الأعلام في بعض السياقات استغرابا وربما عبثا؛ وقد يؤدي مثل هذا الالتفات إلى خلل في

الحدث التواصلي .
أما بالنسبة للألفاظ ذات الدلالة والإحالة فتردنا إلى سياق الحديث عن المفهوم التقليدي للإحالة، وتفريق يول وبراون بين التعبير المحيل والتعبير غير المحيل؛ فالألفاظ التي ينظران لها على أنها غير محيلة قد تكون محيلة بالمفهوم التقليدي، وقد ورد لفظ الناقة في النص القرآني تعبيرا محيلا بالتصور الذي يقدمانه في غير موضع، منها قوله تعالىفَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.( )(
ويقول الشاوش:"إذا كانت الإحالة هي قدرة الوحدة اللفظية على أن ترجع المتخاطبين(المتكلم والمخاطب)إلى شيء موجود في الواقع [...] فإن كل وحدة لفظية تتوفر على الجوانب التالية:
-صيغتها اللفظية.
-دلالتها أو معناها.
-مرجعها أو خارجها.( )"
ويمكن القول إن السمات الدلالية التي تتوفر عليها الألفاظ المحيلة، تساعد على التعرف إلى المرجع(المحال عليه)، سواء أكانت هذه السمات مقتصرة على الجنس والعدد كما في الضمائر، وأسماء الإشارة، أم كانت متوفرة على سمات دلالية أخرى. و ترتبط السمات الدلالية- أيضا- بتصور المرسل لمفهوم الشيء الذي يحيل عليه؛ ولعل هذا ما يفسر اختلاف الصيغة الإحالية فيما ورد على لسان إبراهيم- عليه السلام- فقد جاء على لسانه قوله تعالى :
)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)( )وجاء على لسانه أيضا قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ) ( )، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام الذي تضمنته الآية الأولى، عندما ترك زوجه وابنه إسماعيل في مكان موحش؛ فأحال عليه باسم الإشارة لأنه (المحال عليه) هنا وفقا لتصور بوجراند لمثل هذا الضرب من الإحالة "يدل على ما لا يحظى بتصنيف مفهومي"( )في ذهن المرسل، أما في الآية الثانية فقد قال:"(رب اجعل هذا البلد آمنا) فعرَّفَهُ لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: (الحمد للّه الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق)( )، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة"( ). وهذا يعني أن المحال عليه في الآية الثانية كان شيئا مختلفا(تحقَّقَ مفهوم لفظ البلد)؛ فتمت الإحالة عليه ببنية إحالية، يشترك فيها العنصر الإحالي (هذا) مع العنصر الإشاري (البلد) في الإحالة .
أما الألفاظ التي ليس لها دلالة أو إحالة فقد قصد بها الشاوش العناصر التي ليس لها دلالة مستقلة؛ إنما تأخذ معناها مما تحيل عليه، كالضمائر وأسماء الإشارة، وهي ما يسمى في الدرس اللغوي عناصر إحالية .Anaphors
ولا بد من الجمع بين ما عبر عنه محمد الشاوش بالظاهرة العامة والظاهرة الخاصة؛ فهذا يذهب بالغموض الذي أشار إليه، ولا سيما إذا أُلتفت إلى تفريق يول و براون بين التعبير المحيل وغير المحيل، فتكون النظرة للإحالة قائمة على أساس التفريق بين العناصر الإشارية والإحالية، وفي الوقت نفسه ينظر للعناصر الإشارية على أنها قد تكون تعابير محيلة وقد تكون غير محيلة.
ولا يعني ما سبق أن نخلط بين مفهوم الإشارة ومفهوم الإحالة؛ فـ" العنصر الإشاري هو كل مكون لا يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره"( ). أما العنصر الإحالي فـ"هو كل مكون يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره.( )"
إن الاقتصار على التفريق بين العناصر الإشارية والإحالية، لا يكفي لوصف كثير من مظاهر الإحالة؛ لذا فإن من الضروري أن يُستخدم مصطلح المرجع اللغوي؛ ليدل على ما يُفسَّر بالرجوع

إليه عنصرٌ إحالي، وليكون مقابلا لمصطلح العنصر الإحالي في بنية الإحالة الداخلية التي تقوم عليهما، ففي بعض الإحالات الداخلية لا يشترك المحال عليه مع المحيل في الإحالة، ومع ذلك يؤول الأخير بالرجوع إلى المحال عليه. ويمكن استخدام مصطلح المرجع غير اللغوي ليدل على"ما سماه المحدثون مرجعاً، وسماه علماء المعنى في الدراسات اللغوية القديمة خارجاً .( )"

ولعل من المناسب هنا أن يشار إلى أن للسيوطي تصورا خاصا للمرجع، يتمثل في كونه اللفظ الذي يؤول الضمير بالرجوع إليه، سواء أكان المرجع مشاركا للضمير في الإحالة أم لم يكن.
ياسين بني ياسين الإحالة في النص القرآني

مكن التفريق بناء على ما سبق بين نوعين من الإحالة الداخلية: نوع يشترك فيه العنصر الإحالي مع العنصر الإشاري(مرجعه اللغوي) في الإحالة على مرجع غير لغوي)خارج) ونوع يشترك فيه العنصر الإحالي مع العنصر الإشاري على نحو آخر، وذلك عندما لا يكون المرجع اللغوي تعبيرا محيلا بالتصور الذي يقدمه يول وبراون؛ ففي قوله تعالىوَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ)( ) يشترك الضمير المستتر في(رشيد) مع مرجعه اللغوي (رجل) في الدلالة فقط؛ لأن لفظ رجل لا يحيل على مرجع غير لغوي (خارج.(
أما في قوله تعالىوَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)( )؛ فإن الضمير المستتر في يسعى يشترك مع لفظ(رجل) في الإحالة على مرجع غير لغوي، وهو الرجل المؤمن الذي تحدثت عنه الآية القرآنية.
ولعل من المناسب في هذا السياق أن يشار إلى مسألة خلافية، وهي مسألة الضمير العائد على نكرة، يقول السيوطي:" الجمهور على أن الضمير العائد على نكرة معرفة كسائر الضمائر، وذهب بعضهم إلى أنه نكرة؛ لأنه لا يخص من عاد إليه من بين أمته؛ ولذا دخلت عليه(رب) في نحو: ربه رجلا، ورُدَّ بأنه يخصصه من حيث هو مذكور.وذهب آخرون إلى أن العائد على نكرة واجب التنكير نكرة كالحال، بخلاف غيره كالفاعل و المفعول.( )"
ونميل إلى كون الضمير العائد على نكرة نكرة، ومثله الأسماء المتصلة بأل العهد الذكري؛ فـ"مصحوبها[يكون] معهودا ذكريا، نحوكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ)( ) ونحو: (فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)( ) ونحو: (اشتريت فرسا ثم بعت الفرس). وعبرة هذه أن يسد الضمير مسدها مع مصحوبها"( ). ومرجع كليهما(الضمير المشار إليه، والمتصل بأل العهد الذكري) نكرة، ويشتركان مع مرجعهما في الإحالة على شيء ليس بوسع المخاطب التعرف إليه،لا من خلال النص، ولا بناء على خبرات مشتركة بين طرفي التواصل كما في أل العهد الذهني، أو من خلال سياق الموقف كما في أل العهد الحضوري.
ويمكن القول بأن لا جدوى من الحديث عن المعرفة والنكرة في السياقات التي لا يكون الاسم الموصوف بأنه معرفة أو نكرة تعبيرا محيلا بالتصور الذي يقدمه يول وبراون؛ فلفظا(الْمِصْبَاحُ، والزُّجَاجَة) في الآية السابقة يحيلان مع مرجعيهما(مصباح، زجاجة) على تصورين، بينما يمكن وصف لفظ(الرَّسُول) بأنه هنا نكرة؛لأنه تعبير محيل ومرجعه(لفظ رسول) نكرة، و إن أمكن التعرف إليه بناء على معرفة سابقة، أو بناء على سياق النص القرآني؛ فقد ورد في غير موضع الحديث عن قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون.
وفي النص القرآني ألفاظ محيلة تعد من الناحية اللغوية نكرة، بينما يمكن التعرف إلى مراجعها

من خلال السياق، كلفظ(شاعر) في قوله تعالى) :وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ( )(، ولفظ (مسجدا) في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .)(

ويمكن التمثيل على ما سبق بكلمة (رجل) في قوله تعالى: (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون)( )؛ فالتعرف إلى مرجع لفظ(رجل) في الآية السابقة يكون من خلال السياق؛ فقد وردت هذه الآية في نص فرعي عرض لقصة هود- عليه السلام- من ضمن ما أوردته السورة على لسان هود .وقد افتتح هذا النص الفرعي بقوله تعالىوَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ.( )(

وردت الجملة القرآنية(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ) في سورة الأعراف مرتين: إحداهما لسان نوح- عليه السلام- والأخرى على هود- عليه السلام- وكان للفظ (رجل) في كل منهما دلالة مختلفة؛ أي أنه أخذ دلالته مما يحيل عليه، وهو هنا مذكور داخل النص.

وبناء على ما سبق يمكن القول أن ليس ثمة فرق بين إحالة كلمة(رجل) في الآية السابقة داخل النص، وبين إحالة ما يسمى في الدرس اللغوي عناصر إحالية؛ كضمير الغائب واسم الإشارة، فقد ورد قوله تعالىوَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين)( )، في سورة الشعراء خمس مرات، كان للضمير المتصل(ـه) في(عليه) دلالة مختلفة، وقد وردت الآية السابقة على لسان نوح -عليه السلام- ووردت أيضا على لسان كل من هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السلام.

يمكن القول بناء على ما سبق إن مسألة الإحالة ليست مقتصرة على عناصر إحالية محددة، وأن ثمة ألفاظا تشترك في الإحالة مع عناصر إشارية سابقة، و تأخذ دلالتها من خلال هذا الاشتراك؛ ولا تختلف عن الضمائر إلا من حيث إنها تتوفر على سمات دلالية غير سمتي الجنس والعدد، ويمكن القول إن لفظ (رجل) في الآيات المشار إليها يمثل امتدادا إحاليا لعنصر إشاري؛ وهو اسم النبي المحدث عنه في سياق كل إحالة.

إن العنصر الإحالي الذي يفسره عنصر إشاري لغوي(مذكور) قد يكون مرجعا لعناصر إحالية لاحقة؛ تُفسَّر هذه العناصر بالرجوع إليه؛ ومن ذلك ما نجده في قوله تعالى: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)( )؛ فالعنصر الإحالي (تلك) في الآية السابقة يفسره العنصر الإشاري (القرى)؛ والأخير مرجع للأول، وهذا المرجع يحيل داخل السورة؛ لأنه يأخذ محتواه الفعلي من متعدد سابق، وهو مجموع الأقوام الذين تحدثت عنهم السورة، وهم(بنو إسرائيل، فرعون وملأه، قوم نوح، عاد، ثمود، مدين، قوم لوط)، ولما كان لفظ القرى يحيل بذاته، ويتوسط بين العنصر الإحالي (تلك (ومرجعه اللغوي؛ فيمكن تسميته مرجعا لغويا وسيطا.

واسم الإشارة(هذا) في قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون)( )؛ عنصر إحالي من حيث يأخذ محتواه من المرجع اللغوي(البحران)، وهو في الوقت نفسه مرجع؛ لأنه لا يتأتى تفسير الضمائر المستترة في(عذب، فرات، سائغ) إلا بالرجوع إليه، والإسناد متعلق به، ومثله اسم الإشارة(هذا) في(وهذا ملح أجاج.(

ويمكن أن نستدل على ما سبق بشكل أكثر وضوحا بالأسماء الموصولة التي تحيل داخل النص؛

أي أن لها مرجعا لغويا مذكورا، وتُفسِّر هذه الأسماء عنصرا إحاليا أو أكثر؛ فلا بد لجملة الصلة من عائد يربطها بالموصول، ويشترك الموصول مع العناصر التي تحيل عليه في الإحالة على مرجع لغوي، كما في قوله تعالىوَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)( )؛ فالضمير المستتر في(ظَنَّ) والضمائر المتصلة بـ(أَنَّهُ، اذْكُرْنِي، رَبِّكَ، فَأَنسَاهُ، رَبِّهِ) تحيل على الاسم الموصول(الذي)، وتشترك معه في الإحالة على مرجع لغوي، وهو لفظ(أحدهما) في قوله تعالىوَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.( )(
أما في قوله تعالىأَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)( ) فليس ثمة مرجع لغوي للاسم الموصول(الذي حاج)؛ لذا فهو عنصر إشاري لا يحتاج إلى مكون آخر يفسره. والعناصر المحيلة وهي :الضمائر المستترة في(حَآج، قَالَ،أُحْيِي، أُمِيت، فَأْتِ)، والضمير المنفصل(أَنَا)، والضمير المتصل في (آتَاهُ)، والاسم الموصول(الَّذِي كَفَرَ) تشترك مع الموصول(الذي حاجَّ) في الإحالة على ملك بابل(نمرود بن كنعان). والجدول الآتي يوضح الفرق بين بنيتي الإحالتين السابقتين :

الآية العناصر الإحالية المرجع اللغوي الوسيط المرجع اللغوي الخارج
)وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .(الضمير المستتر في(ظَنَّ) الضمائر المتصلة بـ(أَنَّهُ، اذْكُرْنِي، رَبِّكَ، فَأَنسَاهُ، رَبِّهِ)
الموصول (الذي ظَنَّ (أحدهما ما يحيل عليه لفظ (أحدهما(
)أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ .(الضمير المستتر في(حَآج) والضمير المتصل بـ(آتَاهُ (
ـــــ الَّذِي حَآجَّ ذات ملك بابل الكافر(نمرود بن كنعان(

و تثير المسألة السابقة مسائل متعددة، منها مسألة التحكم؛ فالعنصر الإشاري يحكم العنصر الذي يحيل عليه؛ لأنه يفسره، وهذا يعني أن العنصر الإحالي- وهو معمول به باعتماد عامل الإحالة- قد يكون عاملا بعناصر إحالية أخرى، أم أن العمل والتحكم هنا سلطة معطاة من المرجع الرئيسي للعنصر الإحالي لينوب عنه في العمل، وليكون مفسرا لعناصر إحالية لاحقه تشترك معه في الإحالة.
وقد رفض يول وبراون فكرة أن الإحالة على السابق ترتبط بالعودة إلى الصيغة الأصلية حيث يقولان" فهذا لا شك أنه غير مقنع كنموذج لعملية التحليل، ولكنه معقول جدا كخطة وقتية (غير دائمة) للتأكد من الفاعل ومن العملية في سلسلة الأحداث أو التثبت بالعودة إلى الوراء في حالة إضاعة المعنى وهو[محلل الخطاب] يقرأ شيئا ما ولكن هذه الطريقة لا يمكن أن تكون الطريقة المثلى.( )
ويتضح من الإحالات المبينة في الجدول السابق أن المتلقي- إذا قبلنا بفكرة أن المتلقي يربط العنصر الإحالي بالصيغة الأصلية- سيرجع إلى مرجع لغوي يعيده إلى مرجع لغوي آخر يتوصل من خلاله إلى تأويل العنصر الإحالي. ويرى يول وبراون " أن التفسير الأكثر احتمالا هو أن المحلل يثبت مرجعا في تصوره العقلي للخطاب ثم يربط الإحالات اللاحقة لهذا بتصوره العقلي لا بالصيغة الأصلية في النص .( )"

ويمكن القول إننا مضطرون للحديث عن الصيغة الأصلية عند وصف البنى الإحالية أو وصف بنية النص، أما عند تفسير كيفية إدراك المتلقي لدلالة العنصر الإحالي، فإننا سنحتاج- إضافة للتصور العقلي للخطاب- للعديد من المسائل كالسياق والمقام، والخبرات المشتركة بين طرفي التواصل، والقرائن اللفظية والمعنوية، والاسترجاع والتذكر، وأقرب مذكور والمحدث عنه، والمطابقة اللفظية والمعنوية، وغير ذلك.

يجب أن ينطلق التصدي للإحالة من تصور يقوم على التفريق بين نوعين من الإحالة: إحالات إسنادية، وإحالات غير إسنادية؛ وذلك للوقوف على أهمية العناصر الإشارية والإحالية في النص؛ ومن الطبيعي ألا تتساوى العناصر الإشارية في عدد الإحالات؛ فغالباً ما يحظى العنصر الإشاري الذي يشكل موضوعاً رئيساً في الخطاب بنصيب وافر من الإحالات.

ويمكن أن تعرف الإحالات الإسنادية بأنها الإحالات التي يرد العنصر الإشاري اللغوي أو العنصر الإحالي فيها مكونا في جملة تتوفر على معلومات متعلقة بالمرجع، بحيث تكون صورته في سياق كل إحالة مختلفة عنها في سياق إحالة أخرى، وهي مرتبطة بتراكم المعلومات المقدمة عن هذا المرجع.

إن المسند إليه من المنظور المشار إليه في قوله تعالى وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ( ) هو الضمير المتصل (ها (في(فيها)؛ فهو يحيل على لفظ(الأنعام) في قوله تعالىوَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ( )، وهذه الآية تحدثت عن الأنعام بوصفها نعمة من نعم الله على الإنسان، وتوالي الإحالات عليها يجعلها موضوع الخطاب إلى أن تتوقف الإحالات عليها، وتتوالى على موضوع آخر، وقد تمت الإحالة عليها غير مرة؛ ويتمثل الإسناد لهذا المرجع)الأنعام)( ) بالتراكيب التي تضمنت ما يحيل عليه، سواء في ذلك العنصر الإشاري (الأنعام)، والضمير المتصل (ها)، والتراكيب التي تتوفر على معلومات تتعلق بهذا المرجع، هي:

- وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا.
- وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ
- لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ.
- وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ.

وليس من مقاصد الدراسة في هذا السياق الحديث عن مفهوم الإسناد؛ بل بيان طبيعة العلاقة بين العنصر الإحالي ومرجعه، أيا كان المعنى النحوي لهما، فمتى كان المرجع موضوعا من موضوعات النص، وتوفر التركيب المتضمن للعنصر الإحالي على معلومات متعلقة بهذا المرجع كانت الإحالة إسنادية، وكان المرجع مسندا إليه على مستوى النص، وكان العنصر الإحالي مسندا إليه على مستوى الجملة المتضمنة له.

و تتمثل الإحالة في النص بعدة مظاهر، أبرزها الامتداد الإحالي لعنصر إشاري(لغوي أو غير لغوي)، سواء أكان هذا الامتداد مستمرا أم متقطعا(ورود جمل معترضة، أو استطراد). ويختلف شكل هذا الامتداد باختلاف نوع الإحالة، و باختلاف طبيعة العنصر الإحالي الذي يكرر حضور مرجعه في النص، فقد يتكرر بإعادة لفظه، أو بالإضمار- باختلاف أشكاله- أو بغير ذلك. والشيء الذي يجمع أشكال الإحالة السابقة هو التماثل الدلالي بين المحيل ومرجعه، فهما شيء واحد وإن اختلفت الصورة اللغوية لصيغة الإحالة.

لإحالة في النص القرآني رسالة ماجستير جامعة اليرموك ٢٠٠٦

وللامتداد الإحالي مظاهر أخرى، منها ما يمكن تسميته بظاهرة الانقسام، وظاهرة الاندماج،

وظاهرة الاجتزاء؛ وتتمثل الظاهرة الأولى بما يمكن تسميته بالإحالة الانقسامية، وفيها لا يتكرر العنصر الإشاري من خلال الإحالة عليه بعنصر إحالي يتطابق معه دلاليا، بل يحال بعنصرين إحاليين- أو اكثر- يتطابق مجموع ما تدل عليه العناصر الإحالية مع ما يدل عليه العنصر الإشاري؛ وهنا تختلف طبيعة الإسناد للعنصر الإشاري- إذا كانت الإحالة إسنادية- إذ ينقسم العنصر الإشاري إلى عنصرين إحاليين يسند لكل منهما على حدة، كما في قوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .( )(
وتتمثل ظاهرة الاجتزاء بعدة مظاهر منها ما نجده في الإحالة الانقسامية من خلال العلاقة القائمة بين عنصر إحالي وعنصر إشاري(مرجع له)؛ فهي ليست علاقة تماثل، إنما هي علاقة اجتزاء؛ لأن العنصر الإحالي يدل على بعض ما يدل عليه المرجع، ومن الإحالة الاجتزائية ما نجده في أحد أقسام مرجع الضمير الذي أورده السيوطي حيث قال: " وقد يعود على بعض ما تقدم، نحو يوصيكم الله في أولادكم) إلى قوله(فإن كنّ نساءً)( )،(وبعولتهن أحق بردّهنّ)( ) بعد قوله(المطلقات)، فإنه خاص بالرجعيات، والعائد عليه عام فيهن وفي غيرهن .( )"وهذا يعني أن الإسناد- هنا- لا يكون إلا لبعض ما يدل عليه العنصر الإشاري.
أما ظاهرة الاندماج فهي مظهر مقابل لما يمكن تسميته بظاهرة الانقسام؛ ففيها يتكرر حضور غير عنصر إشاري في حيز واحد من خلال عنصر إحالي يحيل على متعدد. ويكون الإسناد- إذا كانت الإحالة إسنادية- للعناصر الإشارية المحال عليها جميعا، كما في قوله تعالىوَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)( ). وسنعرض لما أسميته الإحالات الاندماجية، والإحالات الانقسامية، والإحالات الاجتزائية، في الفصل الثاني(أنواع الإحالة.(
ومن مظاهر الإحالة في النص ما أسماه عبد المهدي الجراح بالإحالة التخالفية( )، وفي هذا النوع من الإحالة لا يشترك المحيل مع المحال عليه في الإحالة؛ فيكون الامتداد الإحالي للعنصر الإشاري أقرب إلى الاتساق الصوتي-من خلال الجناس التام- منه إلى الاتساق بمفهوم علم لغة النص؛ لانتفاء الوحدة الدلالية؛ كما في قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)( )؛ فقد تكرر لفظ الملك ثلاث مرات كان له في كل مرة دلالة مختلفة، وهذا يعني أن الحديث في البداية كان عن عموم الملك، ولكنه في المرة الثانية والثالثة عن مفهوم الملك.
ويمكن التمييز بين الدلالتين من خلال القول: إن لفظ(الملك) في (مالك الملك (تعبير محيل بالتصور الذي قدمه يول وبراون، بينما كان في المرة الثانية والثالثة تعبيرا محيلا بالمفهوم التقليدي للإحالة؛ فثمة أشياء كثيرة يصح أن تنطبق عليها دلالة لفظ(الملك) دون أن نتصور أنها جميعا تعطى، أو تسلب .ولكن لفظ (الملك) في المرة الأولى يدخل في مفهومه جميع الأشياء التي ينطبق عليها مفهوم لفظ الملك؛ فلله الملك كله.
وتختلف طبيعة العلاقة بين المحيل ومرجعه فقد يكونان مرتبطين بطبيعة الحال، كإحالة العلم، وهنا يغيب البعد الذاتي للمتكلم إلى حد ما، وقد تكون بفعل المرسل كالإحالة على شيء باللفظ الدال على جنسه كـ (الرجل)، أو بوصف كـ)القادم)، أو بضمير كـ (أنا، أنت...) ، أو باسم إشارة كـ (هذا ...) أو باسم موصول كـ(الذي أمامك ...)، أو بغير ذلك. هذا فيما يتصل بالإحالة مباشرة بعنصر إشاري، أو بعنصر إحالي في الإحالة الخارجية(المقامية)، وهذا يعني أن العلاقة بين التعبير المحيل والمحال عليه إما أن تكون موجودة أصلا ، وإما أن تكون نشأت بفعل المرسل كما سبقت الإشارة؛ فالإحالة في النص تتجاوز المفهوم التقليدي القائل أن العلاقة بين الأسماء والمسميات علاقة إحالة، فكثيرا ما يحال على الأشياء بصيغ لم تستخدم من قبل للإحالة عليها.

أما فيما يتصل بالإحالة الداخلية، فإن لطبيعة العلاقة أشكالا متعددة، منها أن تكون العلاقة علاقة اشتراك في الإحالة، حيث يكون للعنصر الإحالي والعنصر الإشاري المفسر له مرجع واحد، وقد تتمثل العلاقة بكون العنصر الإشاري دالا على مرجع غير العنصر الإحالي دون أن يشاركه في الإحالة؛ كما في قوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ)( )؛ فالضمير في (سألها) يحيل على لفظ أشياء ولكنه يعني أشياء أخرى ، وهذا يعني أن له مرجعا آخر.( )

ومن مظاهر الإحالة في النص ما لا يشترك المحيل مع المحال عليه في الإحالة، إنما يتم استدعاء المحال عليه للمقارنة، وهذا يحدث فيما أسماه هاليدي ورقية حسن الإحالة المقارنة.

وللمقارنة في النص القرآني أشكال أخرى، كالمقارنة بين مواقف المؤمنين والكافرين وصفاتهم ومصيرهم. وهذا لا يتأتى بعناصر لغوية محددة، بل قد يتأتى بجمل أو بمتوالية جملية أو حتى نص فرعي كامل. و يمكن الوقوف علي مثل هذه الإحالات في بعض السور المكية كسورة الرعد.

ومن صور المقارنة في النص القرآني تشابه دعوة الأنبياء، ومواقف المكذبين، والعاقبة التي تحل بهم .وهذا يمكن الوقوف عليه من خلال السور التي تعرض لقصص الأنبياء كسورة الأعراف وهود والمؤمنون والقمر والشعراء وطه والقصص وغيرها. وستعرض الدراسة لبعض هذه السور في مبحث الإحالة التكرارية من الفصل الثالث .

بعد الحديث عن مفهوم الإحالة لا بد من الحديث عن بعض المفاهيم التي تندرج تحت هذا المصطلح، ولعل أبرزها مصطلحا العناصر الإشارية والعناصر الإحالية، وقد سبقت الإشارة إليهما، ومن المصطلحات الأخرى :

العناصر الإشارية اللغوية

وهي الألفاظ التي لا تحتاج لعنصر آخر يفسرها، وهي كما يقول الزناد"تجمع العناصر الإشارية الواردة في النص أي في عالم النص الداخلي، وهي قسمان: قسم عامل، وغير عامل:

-عنصر إشاري يذكر مرة واحدة في النص، ولا يحال عليه فهو غير عامل؛ إذ لا يحكم مكونا آخر بعده أو قبله باعتماد عامل الإحالة.[...]

-عنصر إشاري يذكر مرة أولى ثم يحال عليه بمضمر أو بلفظه مرة أو أكثر في غضون النص فهو عامل؛ إذ يحكم عددا من المكونات لأنه يفسرها.( )"

العناصر الإشارية غير اللغوية

وتجمع كل عنصر إشاري يتوفر ما يعود عليه في الملفوظ، وللمقام الحسي ها هنا دور أساسي في الربط بين المضمر الوارد في النص والمفسر الذي يرتبط به، والموجود خارج النص( ).

وينقسم العنصر الإشاري[اللغوي] الذي يحكم وحدة إحالية بعده حسب طبيعته إلى قسمين:

-عنصر إشاري معجمي يتمثل في لفظ دال على ذات أو مفهوم أو حدث أو موقع في الزمان أو المكان.

-عنصر إشاري نصي، وهو مقطع من نص يحال عليه بعنصر إحالي نصي.( )

العنصر الإحالي

وهو كل مكون يحتاج إلى مكون آخر يفسره، وينقسم إلى قسمين: عنصر إحالي معجمي يعود على مكون مفسر له يدل على ذات أو مفهوم مجرد، وعنصر إحالي نصي يعود على مفسر له يمثل مقطعا من النص( )؛ ويبدو بوضوح أن تقسيم العناصر الإحالية إلى معجمية و نصية مرتبط بطبيعة العناصر الإشارية المقابلة لها في بنية الإحالة، بل إن الإحالة الداخلية نفسها تقسم إلى إحالة معجمية وإحالة نصية بناء على طبيعة العنصر الإشاري

)المحال عليه.( )(
يمكن القول إن بعض الإحالات التي تعد إحالات نصية هي إحالات معجمية؛وذلك حينما يكون المحال عليه عددا من عناصر إشارية معجمية متجاورة، تربطها حروف عطف، كما في قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)( )، فالضميرين المتصلين (هما) في (أيديهما)، و(ـا) في)كسبا) يحيلان على متعدد لا على مقطع.
وقد يكون المحال عليه عناصر إشارية معجمية غير متجاورة، كما في قوله تعالى) :وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.( ) (
فضمير المخاطب(ـا) في (اذْهَبَا) يحيل على عنصرين إشارين معجميين غير متجاورين، هما لفظ (موسى) في قوله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ولفظ هارون في قوله تعالى على لسان هارون: (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)؛ ولا يعني ذلك أن الإحالتين السابقتين تجبران المتلقي على الرجوع للآية المتوفرة على العنصر الإشاري(هارون) ثم الرجوع إلى الآية المتوفرة على العنصر الإشاري (موسى)، وقد سبقت الإشارة إلى يول وبراون يرفضان فكرة أن المتلقي يربط العنصر الإحالي بالصيغة الأصلية، إلا عند إضاعة المعنى.
البنية الإحالية
تتشكل البنية الإحالية من مكونين: عنصر إشاري وعنصر إحالي يتطابق معه دلاليا، عندما يكون العنصر الإشاري تعبيرا غير محيل- أو يشاركه في الإحالة -عندما يكون العنصر الإشاري تعبيرا محيلا. وليس المقصود بالبنية الإحالية العنصر الإشاري وجميع العناصر الإحالية المشاركة له في النص، إنما يشكل العنصر الإشاري مع كل عنصر إحالي متعلق به بنية إحالية، وهذا يعني أن العنصر الإشاري يتكرر كونه جزءا من بنية إحالية كلما أحيل عليه .
ويشار عادة إلى أن البنية الإحالية تتكون من مكونين: عنصر إشاري وعنصر إحالي، ولكنها قد تتكون من عدد من العناصر الإشارية وعنصر إحالي، وهذه البنية هي بنية ما أسمته هذه الدراسة الإحالة الاندماجية، ومنها إحالة اسم الإشارة (أولئك) في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)( )؛ فهو(العنصر الإحالي) يشكل مع ثلاثة عناصر إشارية معجمية، وهي: السمع والبصر والفؤاد بنية الإحالة.
وقد تتشكل البنية الإحالية من عنصر إشاري وغير عنصر إحالي، وهذه البنية هي بنية ما أسمته الدراسة الإحالة الانقسامية، ومنها الإحالة التي نجدها في قوله تعالى:
)وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ( )(
فالعنصر الإشاري (البحران) لا يتطابق مع عنصر إحالي؛ إنما ينقسم إلى عنصرين إحالين(هذا، وهذا) ويشكل معهما بنية هذه الإحالة. وتتعدد أشكال البنى الإحالية تبعا لأنواع الإحالة ، وسيتم الحديث عنها في الفصل الثاني.
ولعل من الضروري أن يفرق بين الإحالة وبعض المصطلحات التي تقاربها أو تتداخل معها، ومن هذه المصطلحات مصطلح التداعي، فقد يؤدي تلقي المتلقي لمفردة ما إلى تذكره شيئا أو استحضاره، ولا يكون هذا الشيء هو مرجع هذه المفردة في ذهن المرسل، ولا يريد الإحالة عليه. وقد تتداخل الإحالة مع التناص، إلا أن معيار الفصل يرتبط بقصدية المرسل الإحالة على

نص آخر.

ثالثا:الإحالة عند الإمام السيوطي

لم تكن قضايا الإحالة غائبة عن اللغويين العرب القدماء، يقول محمد الشاوش ":لئن كنا لا نجد في النحو العربي مقابلاً مباشراً لمفهوم الإحالة، ولا بناءً مطابقاً للبناء الذي لها في النظريات اللسانية الحديثة، فإن هذا لا يقوم دليلاً على خلو النحو العربي منه، بل أقصى ما يدل عليه هو أنهم ولجوه من أبواب خاصة بهم ولم يلجوه من الباب الذي ولجه المحدثون"( ). وقد عرض محمد الشاوش بعد قوله السابق، للأبواب التي ذكر أن النحاة ولجوا من خلالها لمفهوم الإحالة. وليس ثمة حاجة لتكرار ما ذكره الشاوس، ولا يتسع المقام لذلك.

وقد أخذ التصدي للإحالة منحىً جديدا؛ خاصة بعد ظهور ما يعرف بلسانيات النص، أو علم لغة النص وتحليل الخطاب، ونحو النص، وغير ذلك من المسميات التي إن لم تكن مترادفة فإن ما يجمعها هو النظر إلى أن نحو الجملة لا يكفي للتحليل والوصف اللغويين، وأنها تتخذ الإحالة أداة من أدواتها